نوادر المخطوطات

نشر وتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون

الدكتور شوقى ضيف

سبق أن قدمنا إلى قراء الثقافة الأستاذ عبد السلام هارون وما يضطلع به من جهد فى نشر مكتبة الجاحظ ، وغيرها من ذخائر الكتب العربية النفيسة ، وقد أتم أخيراً الجزء الرابع من كتاب البيان والتبيين ، وألحقه بفهارس مختلفة تذلّل الفائدة منه أمام الباحثين .

ولا نتحدث اليوم عن ذلك ، إنما نتحدث عن سلسلة جديدة من عمله رأى أن يزود بها المكتبة العربية الحديثة ، وهى سلسلة لا تقوم على نشر الكتب والمجلدات الضخمة ، وإنما تقوم على نشر الرسائل الصغيرة الطريفة التى تعبر عن فكرة جديدة أو بحث محدود .

وهذه خطوة موفقة ، فإن كثيراً من الرسائل المخطوطة التى لما تنشر قد تحوى من الفائدة العلمية ما لا تحويه دفتا كتاب ضخم ، إذ الرسالة الصغيرة فى العادة هى التى تظفر بالآراء الجديدة للمؤلف ، فإن لم تظفر بآراء جديدة ظفرت بموضوع معين يحيط المؤلف بحدوده وأقطاره .

وقد عبر الأستاذ عبد السلام هارون عن ذلك فى مقدمته لهذه النوادر ، إذ قال مصوراً قيمتها ومبيناً لمنهجه فيها : « رأيت أن همة الناشرين المحققين تتجه فى أغلب ما تتجه إلى المخطوطات ذات الشهرة الظاهرة ، وإلى ما جلّ مقداره من كتب السلف ، مغفلين فى أكثر الأمر هذه الرسائل الصغيرة ، وقديماً كان الناس كذلك ، إنما يروقهم ما يملأ أبصارهم ، وما يروعهم بجسامته وعظمه ، ورب أسد مزر فى أثواب رجل نحيف ، فصح منى العزم على أن أكشف عن طائفة من هذه الكتب الصغيرة غطاءها ، وأقدم منها إلى جمهرة الباحثين مادة نادرة ، وأن أجعل هذا فى مجموعات متتالية متسلسلة الأرقام والصفحات ، وستكون من كل أربع مجموعات مجلد يقع فى نحو خمسمائة صفحة ، تنتهى بفهرس عام لما فيها من هذه الرسائل .

وهذه المجموعة الأولى تحوى أربع رسائل مهمة ، هى : الرسالة المصرية لأبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى المتوفى سنة ٥٢٨ هـ ، وكتاب المردفات من قريش لأبى الحسن على بن محمد المدائنى المتوفى سنة ٢٢٥ هـ ، وكتاب مَن نُسِب إلى أمه من الشعراء صنعة محمد بن حبيب المتوفى سنة ٢٤٥ هـ ، وتحفة الأبيه فيمن نسب إلى غير أبيه لمجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزابادى المتوفى سنة ٨١٧ هـ .

وكل رسالة من هذه الرسائل لها طرافتها ، فالرسالة الأولى كتبت فى أوائل القرن السادس للهجرة ، كتبها أبو الصلت عقب زيارته لمصر ، ويقول ابن سعيد فى المغرب إنه كان قد خرج من أشبيلية فصحب بالمهدية ملوكها الصنهاجيين وتوجه فى رسالة إلى مصر فسجن بالقاهرة فى خزانة البنود ، وكان فيها خزائن من أصناف الكتب ، فأقام بها نحو عشرين سنة ، فخرج منها ، وقد برع فى علوم كثيرة من حديثة وقديمة ، وصنف كتاب الحديقة على منزع كتاب اليتيمة فى فضلاء عصره ، وصنف الرسالة المصرية ، وإنما حبسه المصريون لأن صاحبه الذى أرسله وهو يحيى ابن تميم بن المعز بن باديس كان قد قطع هو وأبوه اسم الخليفة الفاطمى من الخطبة واستقلا عن مصر ، فلم يكرم المصريون رسوله بل حبسوه إهانة له وإزراء عليه .

والرسالة فى مقدمتها تشهد بأن أبا الصلت ألفها ليحيى ابن تميم بعد رجوعه إلى حضرته من مصر ، وقد وصف له فيها الديار المصرية وموقعها فى المعمورة ومجرى النيل فيها ، ثم أردف ذلك بنُبَذ صوّر فيها جمال ربوعها ومغانيها ، وأحوال أهلها وأجناسهم وأخلاقهم وسيرهم وعاداتهم وما يتصل بهم أو ببلدتهم من الآثار العجيبة كالهرمين ، ومن ألوان المعرفة كالطب والتنجيم ! وعجب من جهل بعض

الأطباء فى مصر كما عجب من ولوع بعض المصريين بأحكام النجوم وكثرة استخدامهم لها ، وقص فى ذلك طرفاً من النوادر ، ثم تحدث عمن لقيه من الظرفاء والشعراء .

وأظن فى ذلك ما يوضح أهمية هذه الرسالة ، فإن بها أخباراً طريفة عن الأحوال الاجتماعية والعلمية والأدبية بمصر أوائل القرن السادس للهجرة ، وقد أشاد بها السابقون واستقوا منها كثيراً فى مؤلفاتهم على نحو ما صنع ياقوت فى معجم الأدباء والعماد الأصبهانى فى الخريدة وابن مماتى فى قوانين الدواوين والقفطى فى أخبار العلماء وابن أبى أصيبعة فى عيون الأنباء وابن سعيد فى المغرب والمقريزى فى الخطط والأدفوى فى الطالع السعيد والسيوطى فى حسن المحاضرة والمقرى فى نفح الطيب .

وعلق الأستاذ عبد السلام هارون على هذه الرسالة بتعليقات بديعة كشف فيها عن مواضع الغموض وقابل بين نصوصها ونصوص الكتب التى نقلت عنها ، وأصلحها فى غير موضع ! ومن الحق أن نقول إن النسخة التيمورية التى نشر عنها هذه الرسالة مشوهة غاية التشويه تحرّف فيها كثير من الكلم والجمل ، وقد استطاع أن يصلحها جميعاً ويعيدها صورتها الأولى إلاّ ثلاثة مواطن استعصى فيها النص على الإصلاح بسبب أنه غير كامل أو أنه حرف تحريفاً تاماً ، وتصادف أنى كنت أرجع ، إلى الخريدة فى قسمها الخاص بصقلية ، وإذا أول هذا القسم ينقله العماد عن الرسالة المصرية لأبى الصلت فيعرض لموطنين من هذه المواطن الثلاثة ، فأتمما فيهما من نقص وأصلح ما بهما من تحريف .

فى ص ٢٢ من المجموعة نجد الرسالة تجرى هكذا : « وقد تعاور الشعراء ... الشماع على صبح ... » ووضعت النقط لتدل على أن الكلام فى الأصل ناقص ، والعبارة فى الخريدة : « وقد تعاور الشعراء وصف وقوع الشماع على صفحات الماء » ، ونلتقى فى أعلى ص ٢٣ ببيتين محرفين تحريفاً تاماً ، وأشار إلى ذلك الأستاذ عبد السلام هارون وأنشدهما العماد فى الخريدة على هذا النحو :

بشاطىء نهرٍ كأنّ الزجاج
وصفوَ اللجين به ذوّبا

إذا جمّشته الصّبا بالضحى
توهّمته زَرَداً مُذهَبا

وبذلك يستقيم موطنان من المواطن الثلاثة ، ويظل موطن ورد فى ص ١٩ حيث نجد بيتين غير مكتملين ، وأكبر الظن أنهما للصنوبرى ، وديوانه غير موجود تحت أيدينا ، ولا أشك فى أنهما سينكشفان لحضرة الأستاذ الناشر أثناء بحثه وتنقيره الدائبين فى الكتب والدواوين ، وقد جاء فى هذه الصفحة نفسها أى ص ١٩ بيت لتميم بن المعز فى وصف النيل وهو قوله :

فكأنما أمواجه مُفرَّفٌ
وكأنما داراته سُررُ

وأنا أحفظ له رواية ثانية لعلها هى الأصح والأضبط ، إذ تجرى على هذه الصورة :

فكأنما أمواجه عُكَنٌ
وكأنما داراته سُرَرُ

والعكن : الطيات حول السرة ، وجاء فى آخر هذه الرسالة اسم شاعر مصرى هكذا : أبو إسحق إبراهيم بن الأشعث ، وفى الخريدة : إبراهيم بن شعيب ، وكذلك أيضاً فى حسن المحاضرة و مسالك الأبصار .

وإنى لأثنى على ما بذله الأستاذ عبد السلام هارون فى تحقيق هذه الرسالة وأقامه ما فيها من عوَج وأمْتٍ ، ولولا خبرته النادرة فى تحقيق النصوص ما استطاع أن يخرجها فى الصورة التى انتهت إليها ! وكما بذل جهوداً مشكورة فى هذه الرسالة بذل كذلك جهوداً تشكر له فى الرسائل الثلاث الأخرى ، فقد حقق رسالة المردفات من قريش للمدائنى تحقيقاً بديعاً ، والمردفات هن اللائى خلف عليهن أزواج مختلفون ، وفى كتاب المحبر لابن حبيب فصل فى هذا الموضوع ، ولكنه أعم ، إذ يتعرض للمردفات من قريش وغيرهن ، وفيه أيضاً زيادات خاصة بالقرشيات ، وفيه أيضاً بعض مغايرات فى الحديث عن المردفات اللائى اشترك فيهن مع المدائنى ، تارة فى أسماء الأزواج وتارة فى تعيين بعض أسمائهن ، غير أن ابن حبيب يكتفى بذكر اسم السيدة ومن زوجها ، ولا يأتى بشىء من أخبارها وأشعارها إلا قليلاً ، أما رسالة المدائنى التى نشرها الأستاذ عبد السلام هارون

أدب الشعب

للأستاذ كمال منصور

يعد المستشرق الألماني ليتمان أقدم الأساتذة الأجانب الذين شاركوا في التدريس بالجامعة المصرية عند إنشائها ، وأنه عندما بدأ تخصصه في اللهجات عكف على دراسة الفوازير المصرية ، كان هذا منذ أكثر من خمسين سنة رأينا فيها أحد الأساتذة الأجانب يعترف بأدب الشعب ، وينفق جانباً كبيراً من وقته في دراسته . أما نحن فقد كنا إلى عهد قريب ، ولعلنا لا نزال ، ندرس الأدب على أنه صورة لغوية بيانية لا أكثر ولا أقل . وفهم المثقفون أن هذا الأدب ليس سوى مجموعة منتخبة أو غير منتخبة من الشعر والنثر ، يوزع هذا وذاك على العصور مقسمة على أساس الدول الحاكمة أو الفاتحة وأدى هذا بطبيعة الحال إلى انحصار الأدب في بيئات الحاكمين والمحسوبين عليهم ، وكانت الأغراض التي يدور عليها الشعر والنثر تتصل بهؤلاء الحكام مديحاً أو رثاء أو هجاء لخصومهم ، أو صرفاً للعامة عما يراد بهم أو يدبر لهم في الخفاء ، أو دعاية مهرجة كاذبة تصور الأشخاص والأشياء على ما يريد السادة وذوو السلطان .

وظلت أوساط المثقفين مقتنعة بأن هذا هو الأدب ولا أدب غيره ، مطمئنة إلى تلك الظواهر الصناعية التي تشيع فيه ، والتي قد تفتق الحواس بزخرفها وغرابتها ، ونسوا أن الدعامة الأولى في الأدب تقوم على صدق التعبير ؛ تعبير الأمة عن آلامها وآمالها القومية أو الوطنية أو الاجتماعية .

وإن ادعاء المدعين باقتصار الأدب على لهجة بذاتها توصف وحدها بالفصاحة ، هو بمثابة الحكم بالسجن على هذا الفن الجميل ، وما ينبغي له من طلاقة وحرية ، ومن ثم فإن للأمة المصرية أو الشعب المصري أدباً رفيعاً صادقاً ، يفيض بالأحاسيس والمشاعر ، ويعبر في قوة وحرارة عن فلسفة هذا الشعب في الحياة ورأيه في الوجود ، ويبين في جرأة وإقدام عن مذهبه في الحكومة والحكام .

وقد استطاع هذا الأدب الشعبي أن يحيا ، وأن يتطور وأن يتخذ سبيله ، حتى تسلل إلى أوساط المثقفين ، فالتفت إليه فريق وإن كانوا قلة ، وأقبل على تذوقه والإنشاء فيه طائفة من أصحاب المواهب والعبقريات ، أرسلوا أغانيهم وأزجالهم إلى كل نفس وكل مكان ، بل إن عدداً من الذين كانوا يكتبون باللهجة الفصحى أخذ يحاول الكتابة بلهجة الشعب ، حضرية كانت أو ريفية أو بدوية ، وأعانهم على النجاح والتوفيق تلك الوسائط التي حطمت الحواجز بين الطبقات ، وتجاوزت الحدود الزمانية والمكانية ، ونعني بها الإذاعة والسينما وما يصاحبهما من تسجيل الصوت والصورة .

فتعطينا في أحوال كثيرة صورة واضحة عن السيدة التي يتحدث عنها ، ومن هنا تأتي أهميتها ويأتي امتيازها على الفصل الذي عقده ابن حبيب في كتابه .

وتتبع هذه الرسالة رسالة من نسب إلى أمه من الشعراء لابن حبيب ، ورسالة تحفة الأبيه فيمن نسب إلى غير أبيه للفيروزابادي ، وهما رسالتان مهمتان جداً لمن يبحث في الشعر القديم والأدب العربي على وجه العموم ، إذ تشرحان حقيقة كثير من الأسماء مثل اسم ابن الزِّبَعْرَى ، وقيس بن الحُدادية وابن الدُّمَينة وابن الطَّثْرِية وعمرو ابن الإطنابة عمن نسب إلى أمه ؛ ومثل إسحق بن راهويه ، وأحمد بن تيميّة وسويد بن كراع وعبد الله بن أبيّ بن سلول ومحمد بن شرف القيرواني ومحمد بن القوطيّة ومحمد بن ماجه والمقداد بن الأسود ويونس بن حبيب عمن نسب إلى غير أبيه .

وإنا لنرحب بهذه المجموعة النادرة ونثني على ما أدى فيها حضرة الناشر من تعب وعناء تعودناها من قبلُ في كل ما يحاول من نشر وتحقيق .

شوقي ضيف